الفصل الثالث

قصص التجار العرب

منذ الجاهلية ، قام التجار العرب بركوب البحر ، ولم تقتصر أعمالهم على التجارة والتبادل التجارى ، بل قادتهم تجارتهم ورحلاتهم البحرية إلى مهام ثقافية وعلمية وحضارية أشمل وأعمق . فقد عززوا عوامل الاتصال والحوار بين العرب ودول الشرق الأقصى من جهة وبين العرب وسكان الساحل الشرقى لأفريقيا من جهة أخرى ، وتمرسوا بعالم البحر ورياحه وأمواجه ، وأقاموا المراكز التجارية والسكانية على السواحل الأفريقية ، ونقلوا معهم لغتهم وثقافتهم ومعارفهم وأثروها بتجارب الشعوب الأخرى ومعارفها .

ومع قلة المصادر التى تتناول دور التجار العرب قبل ظهور الإسلام ، يبرز مؤلَّف يونانى قديم وضعه بحار إغريقى فى سنة ٦٠ ميلادية ، وعرف باسم « الدليل الملاحى للبحر الأرتيرى » ، عرض فيه بإعجاب لرحلات التجار العرب عبر البحر الأحمر إلى الساحل الشرقى لأفريقيا . ويقول الدكتور جمال زكريا قاسم ، فى بحث له بعنوان « دور العرب فى كشف أفريقيا »[1] ، إن البحر الأرتيرى كان يعنى فى ذلك الزمان البعيد الجزء الغربى من المحيط الهندى « بالتحديد الجزء الملامس لسواحل شرق أفريقيا » ، وإن الكتاب عنى بوصف حركة التجارة والموانئ التى اختفى الآن الكثير من معالمها ، وإنه خص التجار العرب والتجارة العربية والملاحة العربية بفقرات كثيرة من كتابه « فهو يعجب فى مناسبات عديدة لكثرة عدد السفن العربية ، ولاختلاط العرب وتزاوجهم مع القبائل الأفريقية كما يعرض لتعدد العناصر الوافدة على الساحل وتطلعها إلى التعرف على اللغة العربية ومحاولة التحدث بها لما تتيحه لهم من آفاق واسعة فى التجارة والتعامل . وقد يكون من أهمية هذا المصدر أنه أول من أكد العلاقات التى كانت قائمة بين العرب من جنوب الجزيرة العربية والساحل الشرقى لأفريقيا . فذكر أن بعض زعماء الساحل كانوا يدينون بالولاء لأمراء حمير فى جنوب الجزيرة العربية وأن السفن العربية

(١) الدكتور جمال زكريا قاسم ، دور العرب فى كشف أفريقيا ، مجلة « عالم الفكر » ، المجلد الأول ، العدد الرابع .

كانت تأتى من سواحل حضر موت وسواحل الخليج العربى حيث تتبادل التجارة بينها وبين الساحل الأفريقى » . وهذا يدلنا على أن تأثير التجار العرب بدأ قبل ظهور الإسلام ، وامتد من التجارة إلى الملاحة البحرية والثقافة والحضارة ، وأنه أسهم فى تنمية عوامل الاتصال بين العرب وغيرهم من الشعوب والأمم ، وفى بناء الأسس الأولى للجغرافيا العربية ، « فالجغرافيا العربية ، كما قال فيفيان دى سان مارتان ، شبيهة بالجغرافيا الرومانية فى أن أصحابها عرفوا الأرض لا عن طريق الفتح ، بل عن طريق الرحلات التجارية ، فهى جغرافيا وصفية عملية ، قبل أن يعنى المأمون بترجمة كتب بطليموس القلوذى ومارينوس الصورى ، أو بقياس الدرجة الفلكية فى وادى سنجار . وإذا كانت الرحلات وطأت للفتح والغزو ، فإن الفتوحات الإسلامية أتاحت للمسلمين وسائل السفر فى إمبراطوريتهم المترامية الأطراف ، مما ساعد بدوره على توسيع المعارف الجغرافية ، وكان للحج أثر واضح فى تشجيع الرحلات[٢]. وانطلق التجار العرب من جنوب الجزيرة العربية وسواحل الخليج العربى . فقد قامت مدن الخليج الساحلية وأبناء الخليج بنشاطات تجارية وبحرية عظيمة ، بحكم الموقع الجغرافى للخليج كحلقة اتصال ومعبر هام بين الشرق والغرب ، وبين الشرق العربى وأفريقيا والشرق الأقصى ، من الهند إلى الصين .

وقد ساعد ظهور الإسلام ، واتساع رقعة الدولة الإسلامية وازدياد هيبتها ونفوذها وانتشار الأسطول العربى ، على ازدهار التجارة العربية والملاحة العربية عبر الخليج العربى ، واتسعت دائرة التجارة العربية والملاحة العربية ، بعد أن كانت مقصورة على البحر الأحمر والساحل الشرقى الأفريقى . فخرجت السفن العربية من عمان وسيراف وقطر والبحرين والبصرة وعدن ، واتجهت إلى الهند والصين وإلى الموانئ الأوربية والعربية المطلة على البحر الأبيض المتوسط . وسيطر العرب على الطريق البحرى العظيم الممتد من كانتون بالصين إلى طنجة بالمغرب ، وكانت فروع هذا الطريق تصل إلى الملايو والخليج العربى وبحر إيجه والبحر الإدرياتيكى . وامتلك التجار العرب والبحارة العرب من أبناء الخليج السفن البحرية الكبيرة والكثيرة ، وتمرسوا بفنون الملاحة البحرية وأسهموا فى إثرائها بثقافتهم وعلومهم وتجاربهم البحرية . وقد جمع هؤلاء التجار العرب بين التجارة والرحلات ، فحققت لهم التجارة الأرباح المالية والمكاسب التجارية ، وزودتهم الرحلات بالمعارف والفوائد العلمية المكتسبة من التعرف

(٢) الدكتور حسين فوزى ، حديث السندباد القديم ، ص ٢٠ و ٢١ .

والمشاهدة الواقعية للبحار والموانئ والشعوب المختلفة . كما حملت السفن التجارية العلماء والرحالة العرب فى رحلاتها التجارية البحرية ، الذين أثروا علوم الجغرافيا والتاريخ والملاحة البحرية . هكذا ساعدت التجارة العربية عبر البحار على ازدهار حركة الرحلات العلمية والثقافية ، فكان الرحالة ينفقون على رحلاتهم من مكاسبهم التجارية ، ولعل أشهر هؤلاء الرحالة التجار العرب ، ياقوت الحموى صاحب معجم البلدان والمسعودى صاحب مروج الذهب وابن بطوطة . ودام هذا الازدهار التجارى والثقافى العربى ، عبر البحار والمحيطات ، من القرن الثامن الميلادى (الثانى الهجرى) وحتى القرن الخامس عشر الميلادى (التاسع الهجرى) .

وقد روى التجار العرب الكثير من القصص البحرية ، التى جمعت بين التصوير الواقعى والتصور الأسطورى لعالم البحر ، وأثرت أدب البحر العربى بالقصص البحرية الغنية بالمعلومات عن البحار والأنواء والرياح ، وبالحكايات الشعبية والأسطورية ، التى حاكت منها « ألف ليلة وليلة » أعظم القصص البحرية فى الأدب الشعبى العربى ، كما أفضت إلى أدب المرشدات البحرية .

وكان معظم هؤلاء التجار الرحالة والأدباء من أبناء عمان وسيراف والبحرين وغيرها من موانئ الخليج العربى . غير أن هؤلاء التجار العرب لم يدونوا مشاهداتهم وقصصهم بل اكتفوا بروايتها وقصها شفهيًا . وقد اتصل بهم المسعودى ، المؤرخ والرحالة العربى ، وذكر ذلك فى كتابه الشهير « مروج الذهب ومعادن الجوهر » ، ونقل الكثير من أخبارهم ومشاهداتهم وقصصهم وأساطيرهم البحرية والجغرافية ، بدون ذكر أسمائهم . فلم يذكر منهم سوى أبا زيد الحسن السيرافى ، الذى لم يكن تاجراً أو ملاحاً ولكنه كان أديبًا يحب الكتابة وجمع المعلومات وكان رحالة يهوى السفر بالبحر ، ومن هنا التقى ببعض التجار العرب ، وذكر منهم بالتحديد التاجرين سليمان وابن وهب وسجل ما ذكراه له من قصص وحكايات وأخبار ومعلومات عن عالم البحر والجزر والطرق البحرية .

أما قصص ومذكرات التجار العرب الآخرين ، ممن سبقوا التاجرين سليمان وابن وهب فإنها غير معروفة ، لأنهم لم يكتبوها بل رويت عنهم متفرقة وكتبت بأقلام سواهم وضمنت فى بطون كتب الأسفار والعجائب . فلم يصلنا من قصصهم ورواياتهم سوى بعض الإشارات التى ذكرها المسعودى ، فى كتابه « مروج الذهب ومعادن الجوهر » عن قصص التاجر سليمان

وحكايات ابن وهب ، التاجر القرشي ، الذى جاء اسمه عنده « ابن هبار » القرشى لأنه من ولد هبار بن الأسود . أما المخطوط الكامل الذى كتبه أبو زيد الحسن السيرافى وتضمن قصص التاجرين سليمان وابن وهب ، فقد عثر عليه رينودو سنة ١٧١٨ ، فى مكتبة خاصة بباريس ، تحت عنوان غريب هو « سلسلة التواريخ » ، فترجمه إلى اللغة الفرنسية ونشره فى تلك السنة (١٧١٨) بعنوان « أخبار قديمة من الهند والصين ، أوردها اثنان من الرحالة المسلمين سافرا إلى هناك فى القرن التاسع الميلادى » . وصار ، منذ ترجم ، محل اهتمام العلماء والمستشرقين الفرنسيين مثل رينو وفيران وأخيرًا سوفاجيه ، ثم نشر المستشرق الفرنسى رينو النص العربى مع ترجمة جديدة سنة ١٨٤٥ ، وجاء المستشرق الفرنسى فيران فنشر ترجمة جديدة للمخطوط سنة ١٩٢١ . وقد تبين أن أبازيد حسن السيرافى كتب قصص التاجرين العربين سليمان وابن وهب وأضاف إليها بعض ملاحظاته ومعلوماته التى استقاها من التجار والبحارة العرب .

ويقول الدكتور حسين فوزى إن تاريخ هذا المخطوط يرجع إلى سنة ٨٥١م ، وأنه يعد « من أهم الآثار العربية عن الرحلات البحرية فى المحيط الهندى وبحر الصين فى القرن التاسع ، ربما كانت الأثر العربى الذى يتحدث عن سواحل البحر الشرق الكبير ، والطريق الملاحى إليها على أساس الخبرة الشخصية ، مع التزام الموضوع ، وعدم الخروج عنه إلى أحاديث تاريخية وغيرها مما عودنا الجغرافيون والمؤرخون العرب ، وإذا رأينا فيما بعد أن خردذابه وابن الفقيه والإصطخرى وابن حوقل والمسعودى يتكلمون على أساس من المعرفة الشخصية لبعض المواضع التى يذكرونها ، فإنهم أيضًا ينقلون الكثير عن ذلك الأثر العربى الأول ، بلفظه ومعناه فى بعض الأحيان ، وبما يكاد يكون لفظه ومعناه فى البعض الآخر »[٣] .

ويقول المستشرق الروسى كراتشكوفسكى[٤] إن قصص التاجر سليمان ترجع إلى حوالى عام ٢٣٧هـ/٨٥١م . وأنه مسافر كثيرا إلى الهند والصين بقصد التجارة والمشاهدة ، وأنه وصف ذلك الطريق البحرى « بدرجة مكنت فيران من أن يتتبعه على الخارطات الحديثة » ، وأنه « خير مثال للتجار العرب والفرس الذاهبين إلى الصين » . أما الطريق البحرى الذى تمرس التاجر سليمان بالإبحار فيه ووصفه بدقة ، فيبدأ من سيراف إلى مسقط ، على الخليج العربى ، ثم إلى كلم على ساحل مليار . فمضيق تالك شمال جزيرة سيلان ، ومنها عبر سليمان خليج البنغال

---

(٣) المصدر السابق ، ص ٢٢ .

(٤) كراتشكوفسكى ، تاريخ الأدب الجغرافى العربى ، جـ ١ ، ص ١٤١ .

إلى جزيرة لنجبالوس فساحل الملايو وجزيرة تيومن ، ومنها إلى رأس القديس يعقوب القريبة من سايجون ، فجزيرة هاينان ، ثم اجتاز المضيق البحرى إلى ميناء خانقو (كانتون) الصينى . ويقول كراتشكوفسكى أيضًا إن سليمان لم يقتصر فى وصفه على ذكر الطرق الملاحية وتقدير مسافاتها بالأيام وأحياناً بالفراسخ ، بل إنه « ترك وصفًا حيًّا للسواحل والجزر والموانئ المختلفة والمدن وسكانها والمحاصيل والمنتجات وسلع التجارة » ، وأن معلوماته عن كانتون تميزت « بالتفصيل والدقة » .

أما التاجر ابن وهب ، فقد أضاف المزيد من قصصه وحكاياته البحرية ، وسافر بعد مضى عشرين عاما على رحلة التاجر سليمان ، أى عام ٢٥٧ هـ/٨٧٠م . وكان قد انتقل من البصرة إلى سيراف ، ليبدأ منها رحلته البحرية إلى الصين ، بعد استيلاء ثوار الزنج على البصرة . وأما أبو زيد الحسن السيرافى ، كاتب هذه الرحلات ، فقد دوّن هذه القصص فى بداية القرن العاشر الميلادى ، أى بعد مرور وقت طويل عليها ، مع غيرها من قصص التاجر سليمان وسواه من التجار العرب ، أبناء الخليج من السيرافيين والعمانيين .

وقد ذكر المسعودى ، فى كتابه « مروج الذهب ومعادن الجوهر » ، إنه التقى بأبى زيد السيرافى فى عام ٣٠٣هـ/٩١٦م ، ويقول كراتشكوفسكى « ورغماً من الخلط فى الأسماء فإن جميع الدلائل تشير إلى أن المسعودى أخذ عنه رواية ابن وهب » . وإنى أؤيد هذا الرأى ، نظرًا للفارق الزمنى الكبير بين تاريخ رحلة ابن وهب سنة ٢٥٧ هـ ، وتاريخ التقاء المسعودى بأبى زيد السيرافى سنة ٣٠٣هـ . وجاء ذكر أبى زيد السيرافى وابن وهب (ابن هبار) فى باب « ذكر ملوك الصين والترك وتفرق ولد عابور وأخبار الصين وغير ذلك مما لحق بهذا الباب » .

فتحدث المسعودى فى هذا الباب عن رحلات « مراكب أهل الإسلام من السيرافيين والعمانيين » إلى الصين ، وعن طرائف ملك الصين وأخبار ملكه وعدله ، ثم روى قصة « ابن هبار » باعتبارها من هذه الطرائف قائلا : « ومن طرائف أخبار ملوك الصين أن رجلا من قريش من ولد هبار بن الأسود ، لما كان من أمر صاحب الزنج بالبصرة ما كان واشتهر ، خرج هذا الرجل من مدينة سيراف – وكان من أرباب البصرة وأرباب النعم بها ، وذوى الأحوال الحسنة – ثم ركب منها فى بعض مراكب بلاد الهند . ولم يزل يتحول من مركب إلى مركب ، ومن بلد إلى بلد ، يخترق ممالك الهند ، إلى أن انتهى إلى بلاد الصين ، فصار إلى مدينة خانقو . ثم دعته همته إلى أن صار إلى دار ملك الصين . كان الملك يومئذ بمدينة

حمدان ، وهى من كبار مدنهم ، ومن عظيم أمصارهم . فأقام بباب الملك مدة طويلة يرفع الرقاع ويذكر أنه من أهل بيت نبوة العرب »[٥] . وتروى بقية القصة أن ملك الصين أمر بإنزاله فى مسكن وأن تقضى حاجته وتحل مشكلاته ، وأنه كتب إلى ملك خانقو (كانتون) يبحث مسألة نسبه وقرابته لنبى العرب ﷺ ، فلما تأكد الملك من صحة نسبه ، أذن له الملك بالدخول إليه ، وأدار معه حواراً عن العرب وأنبياء الله ، وأكرمه بمال وفير وأعاده إلى العراق .

وينقل المسعودى ، فى كتابه ، تفاصيل الحوار بين « ابن هبار » وملك الصين حول انتصارات العرب « على أجل الممالك وأنفسها ، وأوسعها ربعا ، وأكثرها أموالا ، وأعقلها رجالا ، وأهداها صوتًا » . حتى امتد الحوار إلى أخبار ملوك الأرض وأكثرهم عدلا وقوة . وبعد ذلك عرض ملك الصين صور الأنبياء على ابن هبار ، فتعرف عليهم وصلى عليهم جميعاً . واختتمت قصة اللقاء بين ملك الصين وابن هبار بسؤال الملك لابن هبار عن سبب مغادرته ملكه وداره وأهله ، فعلل ابن هبار رحيله بأحداث ثورة الزنج فى البصرة وحبه للرحيل إلى الصين المحكومة بملك عادل قوى قائلا : « ونزعت بى همتى إلى ملكك أيها الملك ، لما بلغنى من استقامة ملكك ، وحسن سيرتك ، وكثرة جنودك وشمول سياستك لسائر رعيتك فأحببت الوقوع إلى هذه المملكة ومشاهدتها » .

هذه هى قصة ابن هبار أو ابن وهب ، التاجر العربى الرحالة الذى ركب البحر من مدينة سيراف الواقعة على ساحل الخليج العربى وأبحر فى رحلته الطويلة إلى الصين ، كما وردت فى كتاب « مروج الذهب ومعادن الجوهر » للمسعودى ، وهى قصة محدودة لا تصور عالم البحر ولا تتضمن القصص البحرية التى دونها أبو زيد السيرافى والتى أشار إليها المستشرقون والباحثون الأجانب ، ولم تزل هذه القصص بعيدة عن متناول الباحث العربى والقارئ العربى بمخطوطاتها العربية رهينة مكتبة باريس وحبيسة ترجمتها الفرنسية ، تنتظر من يفك إسارها ويصل بينها وبين القراء والباحثين العرب .

ولكن ، ومن حسن الحظ ، أن الدكتور حسين فوزى ، رائد أدب البحر العربى الحديث ، قدر أهمية هذا المخطوط العربى وما احتواه من قصص وحكايات ومذكرات عن البحر والطرق الملاحية ، شكلت فى تطورها فنون أدب البحر العربى الأخرى من أدب

(٥) المسعودى ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، حـ ١ ، ص ١٠٦ - ١٠٩ .

المرشدات البحرية والقصص البحرية فى ألف ليلة وليلة إلى أدب الرحلات البحرية . فنقل لنا من إحدى النسخ النادرة لطبعة رينو المحفوظة بباريس والتى تضمنت النصوص العربية وترجمتها الفرنسية ، نقل الدكتور حسين فوزى النصوص البحرية فى قصص التجار العرب – سليمان وابن وهب وغيرهم – الواردة بمخطوط السيرافى ، وذلك فى كتابه « حديث السندباد القديم » ، وقدمها بقوله : « ولما كانت مذكرات التاجر سليمان مستندًا هاما جدا لفهم المعارف البحرية عند كتاب العربية فى القرون الوسطى ، وكان الحصول على نسخ من طبعة رينو صعبًا حتى فى المكتبات العامة ، رأينا أن نورد هنا ما جاء بها خاصا بالبحار..[٦] وقال الدكتور حسين فوزى أيضاً : « لا يمتاز مخطوط التاجر سليمان الموجود بالمكتبة الأهلية بباريس بأنه النسخة الوحيدة المعروفة فى العالم من مذكرات ذلك الرحال فحسب ، بل إنه تقرير شخصى لرجل عبر البحر الشرقى أكثر من مرة إلى الصين إبان القرن التاسع »[٧] لذا اعتمدنا على هذا المصدر العربى الوحيد الموثوق به فى دراستنا لقصص التاجر سليمان وزميله ابن وهب وما رواه السيرافى من تعليقات ومذكرات وقصص أخرى .

ولقد عد الدكتور حسين فوزى محتويات مخطوط التاجر سليمان من قبيل المذكرات ، فى حين وصفها كراتشكوفسكى بالقصص . وهى فى رأيى مذكرات كتبت بصياغة قصصية ، لهذا جاءت أقرب إلى القصص بمفهومها العربى القديم ، وهى قصص تغلب عليها الواقعية التسجيلية ، وتعنى بالتصوير القصصى للبحر والإنسان والحيوان والظواهر البحرية ، وتمزج أيضًا الواقع بالأسطورة بالخيال ، فهى إذن قصص إبداعية أدبية وفنية تحفل بكل ما يمثله الإبداع الأدبى من واقعية وخيال ، وتحتوى الكثير من المعلومات البحرية . لهذا سنعرض بعض الفقرات منها بتطويل ، حتى يبين الأسلوب والصياغة والمحتوى .

وجدير بالذكر أن بعض المعلومات البحرية الواردة فى قصص التجار العرب ، سبقت الكثير من المعلومات الغربية عن البحار والحيوانات البحرية والكنوز البحرية . مثل ما روته القصص على لسان التاجر سليمان ، وبتعليق السيرافى ، عن العنبر وحوت العنبر وعن طرق اصطياد الحيتان ، وهى معلومات كررها ، بعد ذلك بقرون طويلة الروائى الأمريكى هرمان ملفل فى روايته البحرية « موبى ديك » الصادرة فى القرن التاسع عشر ، وستناولها فى الفصل

---

(٦) الدكتور حسين فوزى ، حديث السندباد القديم ، ص ٢٣ .

(٧) المرجع السابق ، ص ٣٣ .

الأخير من هذا الكتاب . فتضمن المخطوط عدة قصص صغيرة وتعليقات حول العنبر والودع والحيتان وبيئاتها البحرية .

تقول القصة الأولى : « والبحر الثالث بحر هِرْكَنْد ، وبينه وبين بحر لاروى جزائر كثيرة يقال إنها ألف وتسعمائة جزيرة ، وهى فرق ما بين هذين البحرين .. وهذه الجزائر تملكها امرأة ، ويقع فيها عنبر عظيم القدر ... وهو ينبت فى قعر البحر نباتًا ، فإذا اشتد هيجان البحر قذفه من قعره .. والجزائر عامرة بنخل النارجيل ، وبعد ما بين الجزيرة والجزيرة فرسخان وثلثة وأربعة ، وكلها عامرة بالناس والنارجيل ، وما لهم الودع ، والملكة تدخر الودع فى خزائنها ... والودع يأتيهم على وجه الماء وفيه روح فتؤخذ سعفة من سعف النارجيل فتطرح على وجه الماء فيتعلق فيها الودع ، وهم يدعونه « الكَبَنَج » وآخر هذه الجزائر سرنديب فى بحر هركند ، وهى رأس هذه الجزائر كلها وهم يدعونها الدبيجات ..[٨] ثم يعود التاجر سليمان ويضيف قائلا : « ويقع فى هذه الجزائر عنبر عظيم القدر فتقع القطعة مثل النبت ونحوه . وهذا عنبر ينبت فى قعر البحر نباتًا ، فإذا اشتد هيجان البحر قذفه من قعره مثل الفطر الكماة »[٩] .

أما القصة الثالثة فيرويها أبو زيد حسن السيرافى ، فى مجال تعليقه على قصتى التاجر سليمان ، قائلا : « فأما العنبر وما يقع منه إلى سواحل هذا البحر فهو شىء تقذفه الأمواج إليها ، ومبدأه من بحر الهند ، على أنه لا يعرف مخرجه ، غير أن أجوده ما وقع إلى بربر أو حدود بلاد الزنج والشحر وما ولاها وهو البيض المدوّر الأزرق . ولأهل هذه النواحى نجب يركبونها فى ليالى القمر ويسيرون بها على سواحلهم قد ريضت وعرفت طلب العنبر على الساحل ، فإذا رآه النجيب برك بصاحبه فأخذه . ومنه ما يوجد فوق البحر ويزن وزنًا كثيراً ، وربما كان كهيئة الثور أو دونه ، فإذا رآه الحوت المعروف بالبال ابتلعه . فإذا حصل فى جوفه قتله ، وطفا الحوت فوق الماء ، وله قوم يراعونه فى قوارب قد عرفوا الأوقات التى توجد فيها هذه الحيتان المبتلعة العنبر ، فإذا عاينوا منها شيئًا اجتذبوه إلى الأرض بكلاليب حديد فيها حبال متينة تنشب فى ظهر الحوت ، فيشقوا عنه ويخرجوا العنبر منه ، فما كان يلى بطن الحوت فهو المَنْد الذى فيه سهوكة ، وسمكته موجودة عند العطارين بمدينة السلام والبصرة . وما لم تصل إليه سهوكة الحوت كان نقيًّا جدا . وهذا الحوت المعروف بالبال ربما عمل من فقار ظهره كراسى يقعد عليها

---

(٨) المصدر السابق ، ص ٢٣ .

(٩) المصدر السابق ، ص ١٦٢ .

الرجل ويتمكن . وذكروا أن بقرية من سيراف ، على عشرة فراسخ ، بيوتًا عادية لطافًا سقوفها من أضلاع هذا الحوت . وسمعت من يقول إنه وقع فى قديم الأيام إلى قرب سيراف منه واحد فقصد للنظر إليها قوماً يصعدون إلى ظهرها بسلم لطيف . والصيادون إذا ظفروا بها طرحوها فى الشمس وقطعوا لحمها وحفروا له حفرا يجتمع فيها الوَدَك ويُغْرَفَ الودك من عينيها بالحرارة إذا أذابتها الشمس ، ويجمع فيباع على أرباب المراكب ويخلط بأخلاط لهم يمسح بها مراكب البحر يسد بها حززها ويسد أيضاً ما ينفتق من حززها فيباع ودك هذا الحوت بجملة من المال »[١٠] .

هكذا تضمنت هذه القصص الصغيرة الثلاث معلومات بحرية لايزال أغلبها صحيحًا إلى يومنا هذا ، وألقت أضواءً على البحر وهياجه وجزره ، وعلى العنبر ، وحوت العنبر وطرق اصطياده ، وزيت الحوت العنبر وكيفية استعماله فى دَهن المراكب وتوثيق حبالها وألواحها وسد خرومها ، وذلك فى صياغة قصصية مشوقة ، وأسلوب سلس غير معقد .

كما تصور القصص بعض الظواهر البحرية مثل هياج البحر والتيارات والدوامات والنافورات البحرية وأسماك القرش (اللَخمْ) المتوحشة . ويأتى ذلك فى صور واقعية تشهد بالتجارب والخبرات البحرية الواقعية التى اكتسبها التجار العرب فى رحلاتهم التجارية عبر البحار والمحيطات . مثل « ظاهرة السحاب الأبيض » أو النافورات والدوامات البحرية ، التى تصورها القصة التالية :

« وربما رؤى فى هذا البحر سحاب أبيض يظل المراكب ينشرع منه لسان طويل رقيق حتى يلصق ذلك اللسان بماء البحر فيغلى له ماء البحر مثل الزوبعة ، فإذا أدركت الزوبعة المركب ابتلعته ، ثم يرتفع ذلك السحاب فيمطر مطرا فيه قذى البحر ، فلا أدرى أيستقى السحاب من البحر أم كيف هذا . وكل بحر من هذه البحار تهيج ريح تثيره وتهيجه حتى يغلى كغليان القدور فيقذف ما فيه إلى الجزائر التى فيه ، ويكسر المراكب . ويقذف السمك الميت الكبار ، وربما قذف الصخور والجبال كما يقذف القوس السهم . وأما بحر هركند فله ريح غير هذه ما بين المغرب إلى بنات نعش ، فيغلى لها البحر كغليان القدور ويقذف العنبر الكثير ، وكلما كان البحر

---

(١٠) المصدر السابق ، ص ١٦٣ و ١٦٤ .

أغزر وأبعد قعرًا كان العنبر أجود ، وهذا البحر ، أغنى هركند ، إذا عظمت أمواجه تراه مثل النار يتقد ، وفى هذا البحر سمك يدعى اللخم ، وهو سبع يبتلع الناس »[١١] .

وتحتوى القصص أيضاً على تحذيرات ، غير مباشرة للتجار والبحارة العرب من الأخطار الكامنة فى بعض الجزر التى يسكنها أكلة لحوم البشر مثل هذه القصة عن جزيرة « ملحان » : « وذكروا أن جزيرة يقال لها ملحان فيما بين سرنديب وكله ، وذلك من بلاد الهند شرق البحر ، بها قوم من السود عراة إذا وجدوا الإنسان من غير بلادهم علقوه منكسًا ، وقطعوه وأكلوه نيًّا ، وعدد هؤلاء كثير ، وهم فى جزيرة واحدة وليس لهم ملك ، وغذاؤهم السمك والموز والناروجيل ، وقصب السكر عندهم شبيه بالغياض والاجسام »[١٢] .

كما تحذر رقصة أخرى من أكلة البشر ومن لصوص البحر أيضاً ، ويأتى التحذير بشكل غير مباشر ، ولكن من خلال الصور الواقعية المتدفقة التى يمتزج فيها الخيال بالواقع فيزيد من تجسيده ، كهذه القصة عن جزر « لنْجبَالُوس وأنْدَمان » : « وبعد هذا جزائر تدعى لنجبالوس ، وفيها خلق كثير عراة ، الرجال منهم والنساء ، غير أن على عورة المرأة ورقاً من ورق الشجر ، فإذا مرت بهم المراكب جاءوا إليها بالقوارب الصغار والكبار ، وبايعوا أهلها العنبر والنارجيل بالحديد ، ولا يحتاجون إلى كسوة لأنه لا حر عندهم ولا برد . ومن وراء هؤلاء جزيرتان بينهما بحر يقال له أندمان ، وأهلها يأكلون الناس أحياء ، وهم سود مفلفلو الشعور مناكير الوجوه والأعين طوال الأرجل ، قدم أحدهم مثل الذراع ، عراة ليس لهم قوارب ، ولو كانت لهم لأكلوا كل من مر بهم ، وربما أبطأت المراكب فى البحر وتأخر بهم السير بسبب الريح فينفذ مافى المراكب من الماء فيقربون إلى هؤلاء فيستقون ، وربما أصابوا منهم ولكن أكثرهم يفلتون »[١٣] .

ولعل أهم ما قدمته هذه القصص البحرية المفيدة والممتعة ، هو وصفها للطرق البحرية وذكرها للمسافات البحرية وتقديرها زمنيًّا ، وتحديدها لمواقع تزود السفن بالماء العذب ، ووصفها لأنواع السفن اللازمة للملاحة فى البحار المختلفة : « فأما المواضع التى يردونها ويرقون إليها فذكروا أن أكثر السفن الصينية تحمل من سيراف ، وأن المتاع يحمل من البصرة وعمان

---

(١١) المصدر السابق ، ص ٢٥ و ٢٦ .

(١٢) المصدر السابق ، ص ٣٠ .

(١٣) المصدر السابق ، ص ٢٤ و ٢٥ .

وغيرها إلى سيراف ، فيعبأ فى السفن الصينية بسيراف ، وذلك لكثرة الأمواج فى هذا البحر وقلة الماء فى مواضع منه ، والمواضع بين البصرة وسيراف مائة وعشرون فرسخاً ، فإذا عبىء المتاع استعذبوا منها الماء وخطفوا - وهذه لفظة يستعملها أهل البحر أعنى أقلعوا - إلى موضع يقال له مسقط ، وهو آخر عمل عمان ، والمسافة من سيراف إليه نحو مائتى فرسخ ، وفى شرقى هذا البحر فيما بين سيراف ومسقط من البلاد سيف بنى الصَّفَّاق ، وجزيرة ابن كاوان ، وفى هذا البحر جبال عمان ، وفيها الموضع الذى يسمى الدُّرْدُور ، وهو مضيق بين جبلين تسلكه السفن الصغار ولا تسلكه السفن الصينية ، وفيها الجبلان اللذان يقال لهما (كُسَيْر وعُوَيْر) ، وليس يظهر منهما فوق الماء إلا اليسير . فإذا جاوزنا الجبال صرنا إلى موضع يقال له صُحَار عمان ، فتستعذب الماء من مسقط من بئر بها ، وهناك فيه غنم من بلاد عمان ، فتخطف المراكب منها إلى بلاد الهند ، وتقصد إلى كُولَمْ مَلَىَ ، والمسافة من مسقط إلى كولم ملى شهر على اعتدال الريح ، وفى كولم ملى مسلحة لحماية الميناء والبلاد التى حكمها ، ومنها تؤدى السفن ما يفرض عليها ، فيؤخذ من السفن الصينية ألف درهم ، ومن غيرها من السفن الأصغر ما بين عشرة دنانير إلى دينار ... وبها يستعذبون من الآبار . ثم تخطف المراكب - أى تقلع - إلى بحر هركند ، وبين كولم ملى وبين هركند نحو من شهر ، فإذا جاوزوا بحر هركند صاروا إلى موضع يقال له لَنْجْ بالوس ، لا يفهمون لغة العرب ولا ما يعرفه التجار من اللغات ، وهم قوم بيض كواسج ، لا يلبسون الثياب ، وذكروا أنهم لم يروا منها النساء ، وذلك لأن رجالهم يخرجون إليهم من الجزيرة فى زواريق منقورة من خشبة واحدة ... »[١٤] .

ثم تمضى القصة فتعدد أنواع السلع التجارية التى يمكن تبادلها مع السلع التى تحملها السفن العربية ، وكيفية التفاهم مع أهل هذه الجزيرة بالإشارة ، ولكنها تحذر من احتمال استلابهم الحديد من التجار بلا مقابل . وتذكر القصة المسافات البحرية الأخرى حتى تصل السفن إلى خانقو (كانتون) على ساحل الصين ، وتحدد أماكن توافر الماء العذب بالصين .

وتحدد قصة أخرى أوقات المد والجزر وأماكنها ، فالصين « فيها مد وجزر مرتين فى اليوم والليلة ، إلا أن المد يكون فيما يلى البصرة إلى جزيرة بنى كاوان إذا توسط القمر السماء ، ويكون الجزر عند طلوع القمر ، وعند مغيبه ، أما فيما بين الصين وجزيرة بنى كاوان فالمد يكون

---

(١٤) المصدر السابق ، ص ٢٦ و ٢٧ .

إذا طلع القمر ، فإذا توسط السماء جزر الماء ، فإذا غاب كان المد ، فإذا كان فى مقابله وسط السماء جزر »[١٥] .

هذه هى قصص التجار العرب البحرية ، التى تضمنها مخطوط التاجر سليمان ودونها أبو زيد حسن السيرافى وعلق عليها وأضاف إليها ما جمعه من التجار العرب فى عصره ، قدمناها بتطويل يساعد على إبراز أهميتها البحرية والأدبية والعلمية ، واستبعدنا منها القصص المتشابهة أو المكررة وكذلك ما ابتعد منها عن عالم البحر .

أما ما ذكره المسعودى ، فى « مروج الذهب ومعادن الجوهر » ، للقائه مع الأديب العربى الرحالة أبى زيد السيرافى ، كاتب هذه القصص البحرية ، فلا يعدو إشارة مقتضبة تدل على أن المسعودى نقل قصة « ابن هبار » عن رواية لأبى زيد السيرافى ، وتصف الأخير بأنه كاتب وعلامة « من أهل التحصيل والتمييز » . فقال المسعودى : « وأخبرنى أبو زيد الحسن بن يزيد السيرافى بالبصرة (وكان قد قطنها وانتقل عن سيراف ، وذلك فى سنة ثلاث وثلثمائة ، وأبو زيد هذا هو ابن عمر بن زيد بن محمد بن مزد بن ساسياد السيرافى . وكان الحسن بن يزيد من أهل التحصيل والتمييز) إنه سأل ابن هبار هذا القرشى عن مدينة حمدان التى بها الملك وصفتها . فذكر سعتها وكثرة أهلها ، وأنها مقسومة على قسمين يفصل بينهما شارع عظيم طويل عريض » . وتمضى رواية السيرافى ، عن ابن هبار أو ابن وهب ، لتصف الحياة الاجتماعية فى تلك المدينة الصينية ، والعلاقات بين رجال السلطة ، الملك والوزير وقاضى القضاة والجنود والخصيان ، وبين عامة الشعب ، وكيف يعيش رجال السلطة فى الجانب الأيمن من المدينة فى حين يقطن العامة جانبها الأيسر . ولا يقوم بين الجانبين تداخل أو صلات سوى فى « وضح النهار » حين يشترى أتباع السلطة حاجياتهم من التجار والأسواق . وهى كما نرى قصة اجتماعية وسياسية لا تدخل أيضًا فى أدب البحر من قريب أو بعيد .

إلا أن المسعودى يصف بعض الظواهر البحرية ، ويتحدث عن بعض الحيوانات البحرية ، ويحكى بعض القصص البحرية ، فى الأبواب الخاصة بالبحار فى كتابه ، فينقل رؤية التجار والبحارة ، من السيرافيين والعمانيين ، لظاهرة المد والجزر فى البحر الأحمر الذى تمرسوا بالإبحار فوق مياهه . فقد لاحظوا « أن المد والجزر لا يكون فى معظم هذا البحر إلا مرتين فى السنة : مرة فى شهور الصيف شرقًا بالشمال ستة أشهر » ، و « مرة يمد فى شهور الشتاء

(١٥) المصدر السابق ، ص ٢٩ .

غربًا بالجنوب ستة أشهر » ، « وقد يتحرك البحر بتحرك الرياح » . ثم يزيد المسعودى الأمر إيضاحًا فيقدم هذه الصورة القصصية لكلب يغرقه المد فى قاع الخليج : « فرأيت الكلب على هذا الرمل الذى ينصب عنه الماء وقعر الخليج قد صار كالصحراء ، وقد أقبل المد من نهاية الحور كالخيل فى الحلبة . فربما أحس الكلب بذلك فأقبل يحضر ما استطاع خوفًا من الماء ، فيطلب البر الذى لا يصل إليه الماء ، فيلحقه الماء بسرعته فيغرقه »[١٦] .

هذه هى الرؤية الواقعية والقصصية لظاهرة المد والجزر ، كما نقلها المسعودى عن التجار والبحارة العرب من أبناء الخليج ، أما التصور الأسطورى لهذه الظاهرة فيذهب إلى « أن المَلَك الموكل بالبحار يضع عقبه فى أقصى بحر الصين فيفور منه البحر ، فيكون منه المد . ثم يرفع عقبه من البحر فيرجع الماء إلى مركزه ، ويطلب قعره فيكون الجزر . ومثلوا ذلك بإناء فيه ماء فى مقدار النصف منه ، فيضع الإنسان يده أو رجله فيملأ الماء الإناء ، فإذا رفعها رجع الماء إلى حده ، وانتهى إلى غايته . ومنهم من رأى أن الملك يضع إبهامه من كفه اليمنى فى البحر فيكون منه المد ، ثم يرفعها فيكون الجزر »[١٧] .

ومن قصص البحر الأسطورية الأخرى ما نقله المسعودى من قصص التجار العرب والبحارة العرب عن التنين ، وقد انتقى بعضها وأعرض عن ذكر البعض الآخر قائلا : « وقد ذكر قوم فى التنين غير ما ذكرنا ، وكذلك حكى قوم من أهل السير وأصحاب القصص أمورًا فيما ذكرنا أعرضنا عن ذكرها »[١٨] . وقد أتى المسعودى على ذكر ثلاث تصورات أسطورية لقصة التنين ، الأول : « أنه ريح سوداء تكون فى قعر البحر فتظهر إلى النسيم ، وهو الجو ، فتحلق السحب كالزوبعة . فإذا صارت من الأرض واستدارت وأثارت معها الغبار ثم استطالت فى الهواء ذاهبة الصعداء ، توهم الناس أنها حيات سود قد ظهرت من البحر لسواد السحاب ، وذهاب الضوء ، وترادف الرياح » .

ويقول التصور الثانى : « إنها دواب تتكون فى قعر البحر ، فتعظم وتؤذى دواب البحر ، فيبعث الله عليها السحاب والملائكة فيخرجونها من بينها . وإنها على صورة الحية السوداء لها بريق وبصيص ، لا تمر بمدينة إلا أتت على ما لا يقدر عليه من بناء عظيم أو شجر أو جبل ،

---

(١٦) مروج الذهب ومعادن الجوهر ، حـ ١ ، ص ٨٩ و ٩٠ .

(١٧) المصدر السابق ، حـ ١ ، ص ٩٤ .

(١٨) المصدر السابق ، حـ ١ ، ص ٩٣ .

وربما تتنفس فتحرق الشجرة الكبيرة ، فيلقيه السحاب فى بلد يأجوج ومأجوج ، ويمطر السحاب عليهم ، فيقتل التنين ، فمنه يتغذى يأجوج ومأجوج . وهذا القول يعزى إلى ابن عباس » .

أما التصور الأسطورى الثالث للتنين فيروى « خبر عمران بن جابر الذى صعد فى النيل ، فأدرك غايته ، وعبر البحر على ظهر دابة تعلق بشعرها . وهى دابة ينجر منها على الأرض شبر من قوائمها ، تفادى قرن الشمس من مبدأ طلوعها إلى حال غروبها ، فاغرة فاها نحوها لتبتلع عند نفسها الشمس . فعبر - على ما وصفنا من تعلقه بشعرها - البحر ، ودار بدورانها طلبًا لعين الشمس ، حتى صار إلى ذلك الجانب ، فرأى النيل منحدرًا من قصور الذهب من الجنة ، وأعطاه الملك العنقود العنب . وأنه أتى الرجل الذى رآه فى ذهابه ووصف له كيف يفعل فى وصوله النيل ، فوجده ميتًا ، وخبر إبليس معه والعنقود العنب ، وغير ذلك من خرافات حشوية عن أصحاب الحديث »[١٩] . أى أن المسعودى نقل هذه القصص البحرية وهو يعلم أنها أسطورية أو خرافية من إبداع الخيال .

وقد آثرت أن أنقل بعض هذه القصص كاملة بنصوصها كى تعبر عن تنوع الرؤى الواقعية والأسطورية فى هذه القصص البحرية العربية ، وكيف أنها لا تبتعد كثيرًا عما احتوته ليالى ألف ليلة وليلة من حكايات وقصص بحرية واقعية وأسطورية . ومن هنا رجح بعض المستشرقين انبعاث قصص السندباد فى نفس الوسط الذى نشأت فيه قصص التاجر سليمان وفى نفس موضعها »[٢٠] . لهذا سنخصص الفصل التالى لدراسة القصص البحرية ، الواقعية والأسطورية ، التى تشكل أدب البحر فى ألف ليلة وليلة . كما أن ما احتوته هذه القصص البحرية من وصف للطرق البحرية من سيراف على الخليج إلى كانتون بالصين ، كان المقدمة الطبيعية لظهور أدب المرشدات البحرية ، الوجه العلمى لأدب البحر العربى ، الذى تفرد بوصف الطرق الملاحية شعراً وتمثل بأرقى صوره فى أدب الملاح العربى ابن الخليج أحمد بن ماجد . وسنتناوله بالتفصيل فى الفصل الخامس من الكتاب .

---

(١٩) المصدر السابق ، حـ ١ ، ص ٩٣ و ٩٤ .

(٢٠) كراتشكوفسكى ، تاريخ الأدب الجغرافى العربى ، حـ ١ ، ص ١٤١ .